آفاق نجفية

مجلة فصلية مصورة تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة
المتخصصة بشؤون النجف الأشرف

١

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

النجف

وطبقات شعرائها

العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي*

لمجلة الاعتدال الغراء مذهب جميل في نشر الأدب وتأريخه، وقد رافقتني فكرتها الأخيرة المشار إليها في العدد الثاني؛ ألا وهي الترجمة لشعراء النجف المعاصرين، وحبذا لو تناولت بالترجمة مع ذلك شعرائها الماضين، نعم إن أكثر شعر أولئك الشعراء غير جدير بالرواية ولا صالح للخلود إذا استثنينا آحاداً من القوم بيد أننا لا ننظر إلى ذلك الشعر ولا إلى أولئك الشعراء من ناحية البراعة في الفن أو التفوق في الصنعة أو الإبداع في الأسلوب فقط؛ وإنما حبذنا نشر شيء من أحوالهم ونبذ من أشعارهم لغرض آخر لا يعدو خدمة التأريخ فإن التأريخ وفن النقد يتسعان لرواية الجيد والرديء وقد يحرصان على الغث كما يتمسكان بالسمين، وعلى أي حال فالحقيقة هي أن النجف قد اشتهرت بين البلدان بأمور، منها كونها مدفن بطل الإسلام الإمام علي (ع) أما الأمر الثاني فهو مدارسها القديمة التي أنشأت لدراسة علوم الشريعة الإسلامية، وفنون اللغة العربية على الطريقة المألوفة منذ عصور وقد كانت هذه المدارس تعد ما يناهز الثلاثين مدرسة كبيرة وذلك خلال الربع الأول من هذا القرن، ولا شك أن عددها الآن دون ذلك.

ومن الأمور التي ذاع بسببها اسم النجف على ما نرى كثرة شعرائها فلا نعرف في بلدان العرب بلدة تجاري النجف بكثرة تخريجها للشعراء خصوصاً في هذه القرون الأربعة الأخيرة، هذا مع مراعاة صغر رقعتها وأنها لا تعد في الحواضر الكبيرة؛ وقد يجهل الأديب أو المفكر العراقي هذه الحقيقة ولكنني لما كنت أتنقل في بعض الأقطار العربية وذلك خلال سنة ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م دهشت من الأسئلة الموجهة إلي في هذا

---

* عن: مجلة الاعتدال النجفية س٢ ع٤ لسنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

الشأن ولا أنسى إلى الآن اهتمام فريق من أعلام الشام بالموضوع إذ ذاك، فقد سألت لماذا يكثر قالة الشعر في النجف والحلة؟ وما سر شاعريتهم؟ إلى هذا وغيره. والحق اننا إذا رجعنا إلى بعض كتب الطبقات أو التاريخ التي تم وضعها من بعد الألف للهجرة إلى عهد قريب ألفيناها تسمي لنا أعلاماً كثيرين من شعراء وأدباء نجفيين ولا أنسى كذلك أن فريقاً من فحول شعراء بغداد كانوا يحتكمون في مناقضاتهم إلى محافل النجف الأدبية وذلك منذ عشرين سنة أو نحو هذا التاريخ وقد كنا شباناً نطلب العلم في النجف إذ ذاك؛ فما هو يا ترى منشأ هذه الخصوصية في الحاضرة المذكورة؟

يترائى لنا أن السر في ((البيئة)) فإنها منشأ ما رأيت من كثرة الشعراء في النجف والبيئة كلمة تريد منها حيث نطلقها فيما نحن فيه مجموع المؤثرات الخارجية والذهنية - وفي مصطلح كتاب العصر المؤثرات المادية والمعنوية - التي تؤثر في تكوين الشخصية الإنسانية من أوضاع خاصة بالزمان والمكان والثقافة والأخلاق وقد انتبه المفكرون من علمائنا السابقين إلى أثر البيئة في تكوين خصائص الكائنات إجمالاً ومن أقوالهم المأثورة ((إن لله أسراراً في الأزمنة والأمكنة والبقاع)) وغير ذلك. ففي النجف توجد من جهة بعض وسائل الثقافة وأدواتها من مدارس ومعاهد ودور كتب وتشاهد حلقات الطلاب والمحصلين أثناء مذاكراتهم ترسم لنا صورة من تلك الصور المأثورة في المجتمع الإسلامي القديم وتمثل لنا حلقات البصرة ومجالس الكوفة المعروفة وليس لنا أن نستكثر ذلك على بد الغريين فإنها سواء في عصور الجاهلية أو الإسلام، ذات صلة لا تنكر بمراكز الثقافة والتهذيب. فالنجف في جاهليتها قطعة من الحيرة عاصمة المناذرة أو عاصمة عرب العراق قبل الإسلام حيث عاش الأدب الجاهلي في كنف القوم ووفد عليهم فحول شعراء الجاهلية من أقصى نجد والحجاز هذا عدا من نبغ في الحيرة نفسها من شعراء وخطباء أنجبتهم قبائل ((أياد)) و((العباد)) وغيرهما من قبائل الحيرة المشهورة وربما سبق الحيريون إلى إنشاء أول مجمع للأدب الجاهلي إذا صح ما رواه علماء الأدب من أن المعلقات جمعت في الحيرة وأن النعمان بن المنذر أمر فنسخت له أشعار العرب في الكراريس ثم دفنها في قصره الأبيض فلما وثب المختار بالكوفة سنة ٦٦ قيل له أن تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأشعار فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة. وإذا صح ما يروى عن هشام بن الكلبي من أنه استخرج أخبار ملوك الحيرة عن بعض صحفهم.

فعلى هذا كان في الحيرة تدوين وكانت صحف وكراريس، وبالجملة كان أدب

جاهلي وكانت ثقافة حيرية عربية على الإجمال، ومما لا شك فيه أن الخط الكوفي المعروف إنما تفرع عن الخط الحيري الذي انتشر في بلاد العرب في أواخر أدوار الجاهلية ولا بد مع الخط من مخطوطات ومكتوبات فلذلك نحن لا نميل إلى نفي قصة المختار بتاتاً وإن كان أصلها وهو (حمادا الراوية) متهماً بوضعه لطائفة من الشعر الجاهلي وكذلك الأمر في رواية ابن الكلبي والروايتان تدلان إجمالاً على تدوين شيء من الشعر والتاريخ الجاهلي في مدينة الحيرة على أننا لا نصحح كثيراً مما نقلوه أو رووه في هذا الباب؛ ففيه المنحول وفيه المدسوس بلا ريب.

أما النجف بعد الفتوح ودخول العراق في حوزة المسلمين فقد أصبحت جزأ من الكوفة وقد مصرت الكوفة من قبل الفاتحين في جوار الحيرة ولم تمض على تمصيرها أعوام قليلة حتى بدت على المسلمين أعراض جديدة لا عهد لهم بها من قبل ومن مظاهرها الفتور والسأم من الحرب والقتال والميل إلى الأدب والدراسة شأن الأمم التي تنتقل من حال إلى آخر في مطالبها وأوضاعها الاجتماعية وهكذا مال الكوفيون بكليتهم إلى الأدب والثقافة وعقد المحافل والمجالس لهذه الغاية وبلغوا في الأمر بحيث أثر على سجاياهم الحربية تأثيراً أرمض قادتهم وجعل الإمام علياً ينحي يا للأئمة عليهم؟؟؟؟ وكيف لا يكون ذلك كذلك والفروسية قلما اجتمعت مع الحضارة ومظاهرها من الأدب والدراسة فهما خلقان متفاعلان في كثير من الأحيان كلما قوي أحدهما أضعف الآخر ولما شعر الإمام علي ((ع)) باستفحال الأمر أي بما يجلبه التعمق في الأدب على جنده وأصحابه من ضعف خلق الرجولة والكفاح فيهم حاول إصلاحهم وحملهم على التمسك بأخلاقهم الماضية وانبرى ليقرعهم قائلاً في إحدى خطبه البليغة: ((إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار تربت أيديكم نسيتم الحرب واستمدادها وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها)) فمن ذلك التاريخ وضعت في الكوفة أقوم الخطط والمناهج لدراسة الشعر والأدب واللغة دراسة واسعة جامعة نوهت بها جميع الآثار الموضوعة في تاريخ آدابنا العربية حتى قيل أن الأدب أو الشعر ميراث في الكوفة فلا بدع أن تحتفظ النجف بشيء من ذلك التراث الأدبي العظيم أو الثروة العلمية الضخمة ومن المعقول أن تنطبع في ذاكرة المثقفين من أبنائها ذكريات الكوفة، ومآثر علمائها وشعرائها ونحاتها ولغوييها في خدمة اللغة العربية، وقد فطن بعض السواح من المستعربين إلى أن لهجة النجفيين من أفصح اللهجات العربية في هذا العصر وقد سمعت منهم ذلك.

ثم أننا نرى النجف من جهة أخرى حاضرة عربية في موقعها ونزعتها وسجايا سكانها على الأكثر فالسكان يتعشقون حريتهم ويميلمون إلى البساطة في معيشتهم والبلد واقعة على مرتفع يشرف من جهة المغرب على ((البحيرة)) الجافة المعروفة ثم على أفق واسع الرقعة مترامي الأطراف من الصحراء، ولمغرب الشمس مساء كل يوم وانحدارها في قلب تلك البحيرة أو في جوف الصحراء منظر رائع طالما شاهدنا الطارئين على النجف ولا سيما من الغربيين يتذوقونه ويقصدون تلك الأنشاز[1] للتمتع به ثم لا تكاد تغيب الشمس في كثير من الأمسية والعشايا حتى تسطع الكواكب أو يبزغ ((ملك الليل)) من ناحية المشرق يتهادى في سماء صافية الأديم صحيحة الهواء إلى أن يغمر الصحراء أو الكون بأشعته الفضية فيتكون من ذلك منظر آخر لا يقل في روعته عن المنظر السابق؛ ولا ينفك يذكي خيال النجفي الحساس ويغذيه غذاء لا ينفد معينه ولا تنقطع مادته أضف إلى ذلك توفر العزلة والسكون في تلك الأرجاء، فالنجف قد انتبذت ناحية عن الطرق العامة في العراق، وطبيعة البلد هادئة لا تعكر صفوها ضوضاء العمال؛ أو الزراع المنتشرين في سقي الفرات.

فمن تلك المناظر الرائعة أحياناً التي تبعث على التأمل وتوقظ الشعور والوجدان ومن ذلك السكون الذي لا يثمر التأمل إلا في ظله استوحى كثير من شعراء النجف أشعارهم الوجدانية وهاموا في كل واد. وأصبحت تلك الناحية بيئة صالحة لتنمية الخيال وأرهاف الشعور، سخية بانتاج الشعراء انتاجاً فاض عن حاجتها، وربما جعل عنصر الخيال في حياتها أقوى من عنصر الحقيقة.

ولا يؤخذ على الشاعر النجفي في الأكثر لا نقص أو ضيق بين في ثقافته وإلا حاجته الظاهرة إلى استكمال أدوات هذا الفن كما يتطلبه هذا العصر، وهو نقص أو حاجة تستدعيها حالة البلد وأنها لا تعد في الحواضر الكبيرة ولا في الأمصار الغنية الجامعة.

هذا ومن الحقايق المسلمة أن الشعر يتسم إلى حد بعيد بميسم العصر الذي ينشأ

---

(١) مما يشوه مناظر النجف وهيأتها في رأينا وجود تلك التلال القذرة والمتارب المشوهة الواقعة غربي البلد المشرفة على البحر؛ فلو سويت التلال المذكورة؛ ومنعت الفوضى في الدفن أو حددت لبرزت البلد وانكشفت مناظرها الجميلة؛ وقد آن لذوي الشأن أن يفكروا أو يبادروا إلى ذلك.

محمد رضا الشبيبي.

فيه؛ ولما كان الخمول والجمود والتقليد البحت من خصايص هذه العصور الأربعة الأخيرة وصفاتها العامة، فقد تأثر بها شعر الشعراء لا في النجف وحدها، بل في العالم العربي بأسره، فغلب عليه التكلف والتقليد وندر الابتكار والتوليد.

وإذا أنت سبرت قصائد القوم المنظومة في هذه البرهة ألفيتها على الأكثر ترديداً سخيفاً لما قاله الأقدمون في لفظه ومعناه تقرأها فتقرأ فيها التصنّع والضعف وتروى لك فيروى معها التخريف والأوهام.

وما زال الأمر كذلك إلى عهد قريب، أدركنا نحن أواخره كما أدركنا بداية هذا العصر الحديث، فعصرنا هذا إذاً عصر يختلف بطبيعته عن سابقه من حيث أنه عصر اليقظة والانتباه ومحاولة التحرر والانعتاق من قيود التقليد والعادات بل هو عصر الحوادث الجسام والماجريات العظام التي هزت النفوس وأثارت الأفكار فلا بدع أن يتأثر ما يقال من الشعر في مثل هذا العصر بأخص خصائصه وأحواله.

ومن هذه الناحية ظهر الشعر العصري الموسوم بسعة هذا العصر تقرأه فتقرأ فيه الدعوة إلى التجديد والنهوض.. وتتصفحه فتتصفح به التطلع إلى الحياة أو المطالبة بالإصلاح والحث على الأخذ بوسائل القوة والاتحاد.

وبالجملة تجددت فيه أغراض وفنون أخرى ترمي إلى تصوير المثل العليا للخير والحق والجمال في هذه الحياة وهي غاية الأدب الحقيقي في جميع الصور.

ويظهر مما نشر في الاعتدال من أسماء الشعراء النجفيين المعاصرين أن النجف على علاتها وعلى نقص ظاهر في أدواتها وقصور بين في وسائلها قد ساهمت في تكوين هذه النهضة الأدبية أو الحركة الفكرية الحديثة في البلاد مساهمة جديرة بكل إكبار وتبجيل.